الفصل الأول

تسليمة نسرين وموقفها من الإسلام والمسلمين

وُلدت تسليمة نسرين عام ١٩٦٢م فى باكستان الشرقية ، التى صارت تسمّى بعد انفصالها عن باكستان الغربية بـ « بنجلاديش » . وكانت ولادتها فى مدينة ممنسنج القريبة من « دكّا » (التى أصبحت عاصمة هذه الدولة) لأسرة مسلمة [١] ليس فيها ، كما تقول هى نفسها ، أحدٌ متدين سوى الأم [٢] . وقد تخرجت تسليمة من كلية الطب واشتغلت طبيبة بعض الوقت، ثم تركت هذا المجال ونذرت نفسها تماما للكتابة ، التى كانت تمارسها منذ الخامسة عشرة من عمرها .

وتكتب تسليمة القصة والشعر والمقال الصحفى ، ولها عدة كتب . وكثير من كتاباتها يدور حول المرأة والجنس ، ويهاجم الجماعات الإسلامية وكذلك القرآن الكريم ، الذى ترى أنه لم يعد يواكب العصر ومن ثم يحتاج إلى المراجعة [٣] ، وأن القوانين المستمدة منه تصادم التقدم وحرية التعبير [٤] .

وقد تزوجت تسليمة نسرين وطُلّقت ثلاث مرات رغم صغر سنّها .

---

(١) انظر ترجمة رواية « العار » لعصام زكريا / دار الخيّال / ١٩٩٦م / ١٦ (المقدمة) .

(٢) انظر الحوار الذى أجراه معها أنطون دو جودمار وترجمته حياة الشيمى / مجلة « إبداع » / أكتوبر ١٩٩٤م / ١١٩ .

(٣) انظر ترجمة رواية « العار » / ١٧ ، ١٩ (المقدمة) .

(٤) انظر الحوار الذى نشرته مجلة « إبداع » / أكتوبر ١٩٩٤م / ١١٩ .

وهى تهاجم الرجال دائمًا وتحذّر منهم ، وتقرن بينهم وبين الكلاب المسعورة ، وتتهمهم بأنهم مصابون بمرض الزهرى . تقول :

حياتى استولى عليها رجل شيطانى .

إنه يريد أن يملك جسدى

كلما شاء .

وتقول أيضا :

إذا طاردكِ كلب

حذارِ

هذا الكلب مصاب بالسعار .

واذا طاردكِ رجل

حذارِ

حذار

فهذا الرجل مصاب بالزهرى [١] .

وهو موقف يدل على أن صاحبته امرأة غير طبيعية .

وقد هبت المظاهرات فى بنجلاديش ضد تسليمة بسبب رواية « العار » وبعض كتاباتها الأخرى التى تهاجم فيها الإسلام وتشريعاته ،

(١) ترجمة رواية « العار » / ١٧ ـ ١٨ (المقدمة) .

على حين رحّبت الهند الهندوسية والدول الغربية بالكاتبة وكتاباتها ، واتخذ الهندوس فى الهند من الرواية حجة على أن المسلمين هم الذين يضطهدون الهندوس، وسعدوا بتصريحاتها المعادية للقرآن الكريم والشريعة الإسلامية ، اللذين لا يصلحان فى زعمها أن يكونا مصدراً تُسْتَمَدّ منه القوانين فى الدولة الحديثة (١) .

وقد قُدّمت تسليمة بسبب آرائها هذه للمحاكمة فحُكِم عليها بسنتين، ثم أُلغى الحكم فى الاستئناف وأُفرج عنها مع ترك الحرية المطلقة لها لتذهب حيث شاءت ، فسافرت إلى السويد ، التى احتفت بها وبكتاباتها (٢) . كما تُرجمت روايتها التى نحن بصددها إلى عدة لغات آسيوية وأوروبية (٣) .

وقد صودرت رواية « العار » فى بنجلاديش ، كما صودرت ترجمتها فى مصر . ولستُ من أنصار مواجهة الفكر الخارج على الإسلام ، أو الذى ترى بعض الجهات أنه خارج عن الإسلام ، بهذا الأسلوب . وذلك لأكثر من سبب : فالإسلام ، أولا ، دين قوى

---

(١) انظر ترجمة رواية « العار » / ٧ ـ ٨ ، ١٩ (المقدمة) ، وحوار مجلة « إبداع » / أكتوبر ١٩٩٤م / ١١٣ .

(٢) انظر ترجمة الرواية / ٧ ـ ٨ (المقدمة) ، وحوار مجلة « إبداع » / أكتوبر ١٩٩٤م / ١١٣ .

(٣) حوار « إبداع » / ١١٣ ، وصحيفة « المسلمون » / الجمعة ٤ ربيع الأول ١٤١٧هـ ـ ١٩ يوليه ١٩٩٦م / ١ .

يستعصى على الهدم . إنه ليس بناء من زجاج هش ، بل هو جبل باذخ لا يقدر أحد أن ينال منه منالا . ولو كانت المصادرة والتعتيم هما الأسلوب الأمثل لما وجدنا القرآن يسجّل التهكمات والانتقادات التى كان المشركون واليهود والمنافقون يشنّعون بها عليه ، ولا الشتائم والتجديفات التى كانوا يوجهونها لرب العزة ولرسوله ، من مثل : «وإذ قالوا : اللهم، إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ، « وقالوا : إنما يعلّمه بشر » ، « وقالوا : لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، « ويقولون : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » ، « وقالت اليهود : يد الله مغلولة » ، « قد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء » ، « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون : هو أُذُن » ، « يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَ الأعزُّ منها الأذلّ » . إن كتابات تسليمة نسرين وأمثالها هى لون من المواجهة الفكرية ، فهل الإسلام عاجز عن هذه المواجهة ؟ إن مثل هذه الإجراءات تتيح للمبطلين والمتقولين أن يدّعوا على الإسلام ما ليس فيه ويتهموه بأنه يخنق الفكر ويستعيض عن الحوار بتكميم الأفواه. ويظن حينئذ من لا يعرف ديننا العظيم أنه دين ضعيف واهن يستتر وراء المصادرات والعقوبات . إن الله سبحانه يقول : « من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، ويقول سبحانه أيضًا : « لا إكراه فى الدين . قد تبيّن الرشد من الغىّ » .

وثانيا ، فإن أسلوب المصادرة والمحاكمة لا يؤتى عادة بالثمرة المبتغاة، فكل شيء يمكن أن يتم بالقسر إلا فى مسائل الفكر والشعور . وبالله عليكم كيف يمكن الاطمئنان إلى إيمان رجل أُجبر على إعلان عودته عن كفره ، على حين أن أفكاره وآراءه ومشاعره وعواطفه العدائية نحو الإسلام لا تزال تعشش فى ذهنه وفى قلبه ؟ دعوا الناس تختار لنفسها ما تشاء ، فهكذا قال رب الناس . ولقد كان الله سبحانه وتعالى قادراً على أن يخلقهم جميعا مؤمنين ، ولكنه لم يفعل ، وأقام على العكس من ذلك كونه على اختلافهم فى الأديان والمذاهب والأفكار والمواقف ، بالضبط مثل اختلافهم فى السحنة واللغة واللون والعرق والعادات والتقاليد . فكيف نظن أننا نستطيع تبديل سنته جل شأنه ؟

وثالثا ، فمن شأن أسلوب العسف إثارة تعاطف قطاعات كبيرة من الناس مع من يصادَر كتابه أو يُقَدَّم للمحاكمة . ذلك أنهم يرونه حينذاك إنسانا مظلومًا معتدًى عليه فى حريته وأمنه . ومن جهته هو ، فإن التضييق عليه سيدفعه فى الغالب إلى العناد ، بل سيجعله ينظر إلى نفسه على أنه ضحية من ضحايا الاستبداد والقهر . وبكل تأكيد ليس هذا هو ما يريده الذين ينتهجون أسلوب المصادرة والمحاكمة .

ورابعا ، هل يقبل المؤمنون بالله سبحانه أن يعاملهم أعداؤهم حينما يكون السلطان فى أيديهم بنفس الطريقة ؟ ألن يتولوا حينئذ إن هذا

استبداد وطغيان وتدخل بين العبد وربه ؟ سيقولون هذا ، ولهم كل الحق فى أن يقولوه . فلماذا يكرهون ذلك لأنفسهم ويريدون أن يعاملوا به غيرهم؟ إن أحداً لا يجهل أن كثيرا من أعداء الإسلام المتربعين فى دسوت الحكم ينتهجون ، فى محاربة أتباعه الذين يريدون أن يتخذوا منه منهاجا لحياتهم ، أساليب غاية فى الشناعة والنكر من قتل واعتقال وتعذيب ... إلخ . لكن الإسلام أسمى من هذا وأعفّ وأطهر ، وأعطف على الخلق وأحرص على توفير الحرية والكرامة لهم . وإذا تمسك الغيورون على الإسلام بمبادئه العظيمة وقدّموه للناس بالصورة التى ينبغى أن يقدّم بها كان ذلك أدعى إلى أن يحبّ الآخرون هذا الدين الجدير بكل حب وإعزاز . على أننا ندعو أيضًا من يضطهدون الإسلام والمتمسكين به إلى نبذ نهجهم الاستبدادى الغشوم . ينبغى أن ندع الزهور كلها تتفتح وألا يحاول كل فريق أن يعصف بالآخر ، فإن الدنيا تتسع للجميع ، والحياة أقصر من أن نضيعها فى صراعات لا تخدم الوطن بل تجلب له الخراب والتخلف وتحيل الدنيا إلى نكد وشقاء . وبالمناسبة ، فليست مصادرة الكتب مقصورة على الكتب التى تهاجم أو يُظَنّ أنها تهاجم الإسلام ، بل هناك كتب إسلامية كثيرة تعرضت وتتعرض للمصادرة كذلك ، وإن كانت المصادرة هنا أيضا لم تمنع الناس من الحصول عليها وقراءتها والتأثر بها .

ثم ها هو ذا مثلا كتاب الدكتور طه حسين « فى الشعر الجاهلى »

قد أُعيد طبعه مرتين هذه الأيام . كذلك أعيد طبع « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق ، و « من هنا نبدأ » لخالد محمد خالد ، و « أولاد حارتنا » لنجيب محفوظ ، رغم مصادرة السلطات هذه الكتب حين صدورها لأول مرة . فهل نتعظ من هذا ونعرف أن المصادرة لا تجدى ، وأنها إن نجحت فلبعض الوقت ليس إلا . فضلا عن أن هذه الكتب وأمثالها كانت تُتَداول فى السرّ أثناء سريان المصادرة تداولا واسعًا ويسعى الناس لاقتنائها بأغلى الأسعار . ذلك أن كل مطلوب مرغوب كما هو معروف للناس كافة . وللعلم ، فإن رواية تسليمة نسرين مازالت معروضة عند باعة الصحف ، وقد نبّه قرارُ الحظر الناسَ إليها وجعلهم يهتمون بها من جديد رغم مضى أربع سنوات على صدورها للمرة الأولى .

ومع ذلك فإن المؤلفة التى تصوِّر الآن على أنها شهيدة من شهداء حرية الضمير والوجدان والتى تُتَّخذ رمزا على التقدمية والاستنارة تدعو بكل قوة إلى قمع الجماعات الإسلامية فى كل مكان ، وتبدى ارتياحها وبهجتها للعسف والطغيان الذى تعاملت به حكومة الجزائر العسكرية مع جبهة الإنقاذ الإسلامية عقب نجاحها الساحق فى الانتخابات التى نظمتها هذه الحكومة نفسها [1] . فهل هذه هى

(١) انظر ص / ١٨٥ من الرواية .

التقدمية والاستنارة التى تصدّع هذه الكاتبة وأشياعها رؤوسنا بها ؟ أم إنه لا ينبغى أن يتمتع أحد بالحرية إلا هى ومن يرافئونها على أفكارها ومواقفها ؟ إنها تدعو إلى تحريم الأحزاب السياسية المؤسسة على أفكار دينية ، مع أن هذه ليست هى الديمقراطية كما نعرفها ، إذ إن الديمقراطية تعنى ترك الناس يختارون لحكمهم من يريدون ، سواء كانوا كفارا أو مؤمنين ، متمسكين بالدين أو ليسوا كذلك . أ تُرَى لا يصلح للحكم إلا من يكره الإسلام ويريد تنحيته عن الحياة ؟ لا نكران أنه يوجد بين المتصدرين للصفوف فى الجماعات الإسلامية كثير من الذئاب والثعالب والأفاعى. لكن هذا لا ينبغى أبدا أن يكون مسوّغًا لتحريم قيام أحزاب دينية ، بالضبط مثلما لا ينبغى تحريم قيام الأحزاب السياسية غير الدينية لأن كثيراً من رجالها دجاجلة أفاقون . فلنترك الناس تحكم بنفسها على البضاعة السياسية الموجودة فى سوق الأحزاب، ولسوف يخطئ الناس الاختيار كثيرا قبل أن يتعلموا كيف يحسنون تقويم الأشخاص والأحزاب والجماعات . وهذه هى سنة الحياة ، إذ لم نسمع بأمةٍ استطاعت أن تكتسب الوعى السياسى طفرة واحدة ، بل لا بد من دخولها ميدان التجربة ، وهذا يتطلب وقتا . أما الدعوة إلى الاستبداد بحجة حماية الحرية فذلك خداع حقير لا يلجأ إليه إلا الكارهون للحرية ، وإن تشدقوا بها أمام الناس مكرا منهم وخبثا .

وتَدّعى تسليمة نسرين أنها كتبت روايتها دفاعًا عن هندوس بنجلاديش، الذين تبالغ أَمْقَتَ المبالغة فى الحديث عن عدوان المسلمين عليهم ، إذ تقول إن الآلاف المؤلفة من منازلهم ومعابدهم ومحلاتهم قد أُحرقت أو هُدِمت ، بل إن قُرًى لهم بكاملها قد محيت من على وجه الأرض محوا . كما أنها تصور المسلمين وحوشا كاسرة لا يُشْبِع نهمتَها أو يطفئ غُلَتَها إلا اغتصابُ النسوة والبنات الهندوسيات . أهذا معقول ؟ أيمكن أن ينسى المسلمون بهذه البساطة تقاليد الحياء والعفة التى مازالت رغم كل شىء سائدة بينهم فلا يصبح لهم من همّ إلا اختطاف نساء الهندوس من الشوارع ومن البيوت والعدوان عليهن بتلك الوقاحة التى تزعمها الرواية ؟ ثم إن المسلمين الآن أضعف وأهون وأذل من أن يُقْدِموا على هذا العدوان . إن هذا العدوان يلائم الصهاينة والهندوس والصرب وسائر الأوروبيين ، ولكنه لا يتفق مع التركيبة النفسية للمسلمين ، الذين يصدق عليهم بوجه عام فى العصر الحديث عنوان رواية ديستويفكسى « المستذلون المهانون » . إن المسلمين يُصْفَعون على أقفائهم ويُرْكَلون فى أدبارهم فى كل مكان ، بل يُقْتَلون وتُغْتَصَب نساؤهم وتُشَقّ بطون الحوامل منهن حيثما تكون مواجهة بينهم وبين أحد من أعدائهم ، فلا يردون الإهانة بمثلها . فكيف نصدق ادعاءات تسليمة نسرين ضد المسلمين فى بنجلاديش ؟ ثم إذا كانت تتحلى حقا بهذه الرحمة التى تظهرها فى كتابتها للهندوس فلماذا لم تُبْدِها

نحو مسلمى الهند ، الذين يتعرضون لأبشع عمليات التنكيل والبطش والإرهاب والتقتيل على أيدى عبّاد البقر الوثنيين ؟ ولماذا لم يثُرْ ضميرها المرهف لمآسى المسلمين فى البوسنة والهرسك وفلسطين وبورما وتايلاند والفلبين والصين مثلا ؟ أم إن شفقتها وقف على الهندوس وحدهم ؟ إن هذه الكاتبة الساذجة تظن أن الناس ستنطلى عليهم الخدعة السخيفة التى أقامت عليها روايتها ، وهى أن المسلمين ليسوا سوى مخلوقات متوحشة لا قلب لها ولا أخلاق ، بخلاف الهندوس ، الذين تُبرزهم فى صورة ملائكة لا تعرف الشرّ بل لا تستطيع أن تدفع الشر عن نفسها [١] . إن هذه بلاهة فكرية وفنية ، والعياذ بالله ! فكيف يقال إن الرواية لا تسىء للإسلام والمسلمين ؟ لقد اتخذ بعض السياسيين الهندوس فى الهند من الرواية حجة على أن العدوان إنما يقع من المسلمين على الهندوس فى بنجلاديش لا على المسلمين من الهندوس فى الهند . كما أثلج صدورهم ما قالته الكاتبة فى حقّ القرآن الكريم ، إذ اتهمته بالتخلف عن مواكبة العصر وادعت أن القوانين المستمدة منه وبال على الدولة الحديثة . ومع ذلك يقول بعض من يدافعون عن الكاتبة وروايتها إنها تفهم الإسلام أحسن مما يفهمه منتقدوها ، وإنها

---

(١) وقد دفع هذا التحيزُ الفجّ إحدى الصحفيات بجريدة « الدستور » إلى كتابة مقال غاضب تفضح فيه كراهية تسليمة نسرين للإسلام ، تحت عنوان « المسلمون أشرار ، والملحدون أبرار . اشمعنى يعنى ؟ » (الدستور / الأربعاء ٣ يوليه ١٩٩٦م / ١٠) .

تنطلق فى آرائها ومواقفها من مبادئه العظيمة [١] . ترى كيف يكون هجوم شخص ما على الإسلام واتهامه للقرآن بالتخلف عن مسايرة ركب العصر واستماتته فى محاربة شريعته دليلا على قوة حبه للإسلام وعمق فهمه له وشدة وفائه لمبادئه ؟ إن هذه معادلة مستحيلة.

وأحسب أن من بين الأهداف التى كانت وراء تأليف هذه الرواية الرغبة فى تحويل الأنظار بقدر الطاقة عما كان يجرى آنذاك فى البوسنة والهرسك . لقد كشفت الحضارة الغربية هناك عن سوأتها القبيحة المنتنة المدوّدة فأراد « الوحوش الشقر » (وهو الاسم الذى كان يطلقه أجدادنا على الأوروبيين) أن يرموا المسلمين بدائهم وينسلّوا ، فكانت هذه الرواية ، التى تفترى الكذب والباطل على مسلمى بنجلاديش . إننا لا ننكر أنه كان هناك ردّ فعل ضد عدوان الهندوس على المسلمين فى الهند ، ذلك العدوان الذى تجاوز كل حدّ والذى كان يتم تحت سمع الحكومة وبصرها ، وبمباركتها أيضا . ولقد فاض بالمسلمين الكيل فلم يستطيعوا السيطرة على مشاعرهم وهم يرون إجرام عبّاد البقر لا يتوقف ولا يرعوى ولا يخجل . صحيح أن الإسلام يكره إيذاء أهل الذمة وينحاز إلى صفوفهم ماداموا لم يرتكبوا ما يسوّغ هذا الإيذاء . لكن الإسلام

---

(١) انظر مقال رجاء النقاش فى « أهرام » الاثنين ٢٤ يونيه ١٩٩٦م بعنوان « الغاضبة » / ص ٢٠ .

يكره أيضا أن يصبح المسلمون « مَلْطَشَة » لكل من هب ودبّ . فإذا قام المسلمون فى بنجلاديش وردّوا على جرائم الهندوس ضد إخوانهم فى الهند ، فبأى حقّ ندينهم فى الوقت الذى نغض فيه الطرف عن بواعث هذا الغضب وأسبابه ؟ وبأى منطق تهوّل المؤلفة فى وصف ما صنعوه وتتكتم ما اقترفه أولئك الذين دفعوهم بوقاحتهم وإجرامهم إلى ذلك الغضب ؟

لقد أحسن الأستاذ رجاء النقاش فى تجليته لموقف الإسلام من الأقليات التى تعيش تحت جناحه ، إذ قال : « ليس فى الإسلام قسوة ولا عنف ولا تطرف ، بل فيه شجاعة وشهامة ونفوس كبيرة واحترام واهتمام بكل خلق الله ، خاصة لو كانوا ضعفاء ومحتاجين إلى العون والمساندة . الرسول الكريم ﷺ يقول ما معناه : « ما دخل الرفق فى شىء إلا كان زينة له وفضيلة فيه » . وعندما دخل عمرو بن العاص مصر فاتحا لها سنة ٦٤٠ ميلادية بعد انتصاره على الرومان ، الذين كانوا يضطهدون أهلها أشد الاضطهاد ، استدعى عمرو بطريرك الأقباط الأكبر الأنبا بنيامين من صومعته التى كان هاربا إليها فى الصحراء من بطش الرومان وتحدث معه وناقشه ، ثم أعطاه وثيقة بأمان له ولسائر الأقباط وقال له : « عُدْ إلى كنيستك وباشر أمور دينك وأنت آمن حُرّ » . ويذكر المؤرخون بعد ذلك أن عمرو بن العاص قال أمام الجميع

إنه لم ير فى حياته رجلا من رجال الدين المسيحى أطهر وأتقى وأخلص قلبا وأشد مهابة من البطريرك بنيامين [١] . والتاريخ الإسلامى مليء بهذه النماذج الرائعة فى التسامح الدينى العظيم . ومن ذلك ما هو معروف عن العرب فى الأندلس من حمايتهم لليهود واحترامهم لهم حتى ظهر بينهم مفكرون وعلماء بارزون مثل موسى بن ميمون (١١٣٥ ـ ١٢٠٤م) [٢] . وكان الأخطل الشاعرُ العربى المسيحى هو شاعر الدولة الأموية ، وكان شديد القرب من ملوك هذه الدولة ، يحظى منهم بالرعاية الكاملة والاحترام الكبير . بل لقد كان مدللا ، وكان موضعه من ملوك بنى أمية سابقا ومتقدما على غيره من الشعراء المسلمين [٣] . وكان طبيب هارون الرشيد مسيحيا . وعندما سُئل الرشيد فى ذلك قال ما معناه : إن سلامة قيادة الدولة فيها سلامة للدولة ولأمور

---

(١) كنا نحب أن يذكر الأستاذ النقاش هؤلاء المؤرخين والمواضع التى ورد فيها هذا الكلام من كتبهم ، مع إيراد نصّه بالضبط .

(٢) وحتى كان منهم أيضا وزراء أذلوا المسلمين وخانوا الأمانة التى وُكلت إليهم حتى ضاق صدر الرعية بهم واشتكوهم إلى من استوزروهم فلم يُشْكوهم . وعندئذ فاض مرجل غضبهم فثاروا وتولوا بأنفسهم وضع الأمور فى نصابها وقتلوا الوزير الخائن الذى كان قد قتل ابن من استوزره . وذلك الوزير الخائن هو ابن النغرالة ، الذى تولى الوزارة للملك حبوس بن زيرى وابنه باديس فى الأندلس (فى القرن السابع الهجرى) .

(٣) ذلك أنه كان يقوم لهم بالمهمات القذرة التى كان يتورع عنها المسلمون المتحرجون ، مثل سب أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المسلمين . وهذا الطبيب المسيحى هو الذى يرعانى ويضمن سلامتى ، فهو يخدم الدولة الإسلامية رغم أنه مسيحى .

كل من يفرض على الإسلام والمسلمين شيئا من التطرف وعدم التسامح فهو بعيد كل البعد عن مبادئ الإسلام الصحيحة ، فلا الإسلام يقبل التطرف والعنف ، ولا المسلمون الحقيقيون يقبلون ذلك أو يرضونه لدينهم ولأنفسهم ، إلا إذا كان الأمر حربا صريحة ضد عدوّ لهم يحمل السلاح فى وجههم ويستبيح دماءهم ويحاول إلحاق الأذى بهم . وما نجح الإسلام فى الانتشار السريع إلا بتسامحه ومراعاته للمبادئ الإنسانية الرفيعة .

هذا هو الإسلام فى حقيقته : سماحة ونبل ومساعدة للناس جميعا حتى لو كانوا غير مسلمين ما داموا يعيشون فى سلام داخل البلاد التى يحكمها المسلمون ويمثلون الأغلبية فيها » (١) .

والحق أن الإسلام هو هذا وأكثر من هذا . ونستطيع أن نورد نصوصًا أخرى كثيرة توضح عظمة هذا الدين وعبقريته فى مجال التعامل مع الأقليات التى تحيا فى كنفه وتخضع لسلطانه . من ذلك قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين

---

(١) من مقال « الغاضبة » فى « أهرام » الاثنين ٢٤ يونيه ١٩٩٦م / ص ٢٠ .

ظلموا منهم ، وقولوا : آمنا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » ، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَبَرّوهم وتُقْسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين » ، « يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يَجْرِمَنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون » ، « اليوم أُحلّ لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلّ لكم ، وطعامكم حِلّ لهم ، والمحصَناتُ من المؤمنات والمحصَنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن مُحْصِنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » ، «فاعفُ عنهم واصفح . إن الله يحب المحسنين » . ويقول الرسول ﷺ : «من ظَلَم معاهَدًا أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طِيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » . وكان الرسول ﷺ جالسا ذات يوم فى المدينة عندما مرت به جنازة يهودى فقام فسأله الصحابة فى ذلك مستغربين ، فكان رده عليهم : « أليست نَفْسا ؟ » . وحينما قدم وفد الحبشة على المدينة تركهم عليه الصلاة والسلام يمارسون زَفْنهم فى المسجد ... وهكذا . لكن ليس معنى هذا أن يَذِلّ المسلمون للأقليات فى بلادهم فيسكتوا عن خيانة الخائنين منهم أو يخضعوا لتحكماتهم التى يبدونها فى بعض الفترات التاريخية عندما يشيمون من

الحكومات الإسلامية التى يعيشون فى كنفها ضعفا ، إذ معنى هذا أن تتحكم الأقلية فى الأغلبية ، وهو ما يناقض أصول الديمقراطية مناقضة تامة .

ومن الناحية الأخرى لا بد أن تعامَل الأقليات المسلمة فى الدول المختلفة بنفس التسامح الذى يبديه المسلمون نحو الأقليات الدينية وغير الدينية فى بلادهم . أما انتقاد المسلمين على الهفوات التى تقع من بعضهم مخالفةً لسياسة الدولة العامة نحو الأقليات وتضخيمها لإثارة الفتن ، والخَرَس فى ذات الوقت تجاه التنكيل والاضطهاد الفاحش اللذين تتعرض لهما الأقليات الإسلامية فى كثير من الدول فهو موقف لا إنسانى ينبغى أن نعرّيه ونفضحه دون تهيب أو وَجَل. إن الإسلام عزة وكرامة . وإذا كان المسلمون مطالَبين بالحفاظ على كرامة الأقليات فى بلادهم ، فكيف يُقْبَل أن يفرّطوا هم أو يُجْبَروا على التفريط فى عزتهم وكرامتهم ؟

وسوف أضرب هنا بعض الأمثلة على الطريقة التى يعامَل بها المسلمون فى بريطانيا أم الديمقراطية : إنهم مثلا لا يستطيعون أن يؤذّنوا للصلوات جهرة ولا حتى لصلاة الجمعة الأسبوعية ، إذ لا يجوز أن يتجاوز الأذان جدران المسجد ، على حين تضرب الكنائس نواقيسها للصلوات فى أى وقت ولأى مدى زمنى . كذلك فالقانون البريطانى

لا يسكت على المسلم الذى يتزوج بأكثر من واحدة . أى أنه حتى فى نطاق الأحوال الشخصية فإن المسلم فى بريطانيا لا يتمتع بالحقوق التى تكفلها له تشريعات دينه . كما أن الدولة هناك ، فى حدود علمى ، لا تسوّى بين المسلمين والنصارى فى حق الحصول على إجازة فى الأعياد الدينية . فيا ليت الأقليات المسلمة تنعم بنصف ما ينعم به غير المسلمين فى البلاد الإسلامية بوجه عام ، ويا ليت الأقليات الإسلامية تجد من أبناء البلاد التى يعيشون فيها من يدافع عنهم بالحقّ مثلما يتطوع بعض أبناء المسلمين فى البلاد الإسلامية للدفاع عن غير المسلمين بالحق أحيانا وبالباطل فى كثير من الأحيان !

هذا ، وقد تكررت فى رواية تسليمة نسرين الإشارة إلى استقلال بنجلاديش عن باكستان . والذين لا يعرفون الأمور سوف يظنون أن باكستان هى ، مثل إنجلترا وفرنسا وهولندا وإيطاليا والبرتغال واليابان ، دولة استعمارية ، وأنها كانت تحتل بانجلاديش . وهذا خطأ بواح ، فليست باكستان دولة استعمارية ، وهى لم تحتل بنجلاديش فى يوم من الأيام ، بل كانت الدولتان عبارة عن دولة واحدة هى دولة باكستان ، وكانت بنجلاديش تسمى « باكستان الشرقية » ، أما باكستان الحالية فكانت تسمى « باكستان الغربية » . وقد ظهرت هذه الدولة إلى الوجود سنة ١٩٤٧ م حينما قُسِّمت شبه القارة الهندية إلى دولتين : دولة

هندوسية فى أساسها هى دولة الهند ، ودولة مسلمة فى أغلبها هى دولة باكستان . والسبب فى هذا التقسيم هو الصعوبة التى كان المسلمون يجدونها فى التعايش مع عبّاد البقر الهندوس فى دولة واحدة ، وذلك بسبب ضيق العطن والتعصب الوحشى عند أولئك الوثنيين، الذين كانوا يصطدمون دائما بالمسلمين من جرّاء أكلهم لحم البقرة ، التى يعبدونها هم . وعندئذ اضطر المسلمون اضطراراً إلى المطالبة بالانفصال ، الذى انطلقت الدعوة إليه أول ما انطلقت من بلاد البنغال (بنجلاديش حاليا) .

والذى ينظر إلى خريطة شبه القارة الهندية سوف يلاحظ أن الباكستانيّن كانتا قسمين متباعدين ، فباكستان الشرقية تقع فى شمال شرق الهند ، والغربية تقع فى شمالها الغربى ، وتفصل بينهما مسافات شاسعة . وكان هذا أحد العوامل المضادة للوحدة بين القسمين . وثمة عامل آخر يتمثل فى أن باكستان الشرقية لم تكن تحظى من الحكومة المركزية ، التى كان مقرها فى القسم الغربى ، بنفس الاهتمام الذى كان يناله ذلك القسم ، مما أوغر الصدور وخلق الحزازات . وهذا الخطأ هو مسؤولية باكستان الغربية ، التى كان ينبغى أن تعيد ترتيب الأمور وتُقَسّم الدخل والخدمات على أساسٍ عادل حفظا لوحدة البلاد واحتراماً لمبدإ المساواة ، الذى هو مبدأ إسلامى أصيل . وينضاف إلى هذين

العاملين عامل آخر ، وهو مطالبة باكستان الشرقية بأن تكون البنغالية هى لغتهم القومية . والحقُّ أن وحدة اللغة هى أحد العوامل المهمة فى حفظ وحدة البلاد ، وكان ينبغى على البنغاليين فى القسم الشرقى من باكستان ألا ينساقوا فى هذا الاتجاه الخطر . لكنهم للأسف تمادوا فى هذا السبيل المعمّق لأسباب الفرقة والاختلاف . وكانت الهند تراقب هذا كله، وتشجّع زعماء المعارضة فى باكستان الشرقية على تحدّى الحكومة المركزية ، وتنفخ فى النار حتى تزداد لهيبا وضراما . وهذا هو العامل الرابع .

وقد ساندت الهند زعيم المعارضة البنغالية الشيخ مجيب الرحمن ، وغزت جيوشها باكستان الشرقية حيث اشتبكت مع الجيش الباكستانى فى حرب ضروس هُزِم فيها الجانب الإسلامى هزيمة مهينة . وكان ذلك فى عام ١٩٧١م. وعندما تطورت الأمور وأخذت تنذر بوخيم العاقبة عرض ذو الفقار على بوتو ، الذى كان حينها رئيسًا لدولة باكستان ، على زعيم المعارضة البنغالية الشيخ مجيب الرحمن أن يتنازل له عن رئاسه الدولة لقاء عدم انفصال باكستان الشرقية . بيْدَ أن مجيب الرحمن ركب رأسه وأصر على الانفصال . ومن يومها لم تستقر أحوال باكستان الشرقية ، ولم تستطيع أن تحل أيًا من مشكلاتها التى كانت

تظن أنها ستختفى بمجرد انفصالها عن الدولة الأم . وهذه هى حقيقة الأمر باختصار (١) .

كذلك فإن الرواية تهاجم الجماعة الإسلامية فى بنجلاديش متهمة إياها بأنها كانت ضد الاستقلال . تقصد ضد الانفصال . والواقع أن هذا الذى تعيبه المؤلفة على الجماعة الإسلامية إنما هو مبعث فخار لها ، لأن معنى ذلك أن هذه الجماعة كانت حريصة على وحدة البلاد . ونحن قد جرّبنا الوحدة مع سورية ، وذقنا مرارة الانفصال ، إذ كنا نريد أن تكون هذه الوحدة الصغيرة بداية لوحدة الشعوب العربية جميعا . ومن هنا نفهم ونقدر موقف الجماعة الإسلامية ، الذى تعيبه المؤلفة الحاقدة . والحق أنه لا يضيق بالوحدة إلا الخونة أو الأغبياء الذين

---

(١) اعتمدت فى كتابة هذا الجزء الأخير على التقارير والدراسات التالية ، وكلها منشورة فى مجلة « السياسة الدولية » القاهرية :

١ ـ « الأزمة السياسية فى باكستان » للدكتور إسماعيل صبرى مقلد (إبريل ١٩٧١م / ٢٢ ـ ٤١) .

٢ ـ « انعكاسات الحرب الأهلية فى باكستان » لعبد المنعم المشاط (أكتوبر ١٩٧١م/ ١٤٨ ـ ١٥٦) .

٣ ـ « البنجلاديش والصراع الهندى الباكستانى » لنبيّة الأصفهانى (يناير ١٩٧٢م / ١٣٥ ـ ١٣٧) .

٤ ـ « اتفاقية سيملا والمصالحة الهندية الباكستانية » لنازلى معوض أحمد (أكتوبر ، ١٩٧٢م / ١٤٩ ـ ١٦١) .

٥ ـ « الانعكاسات الدولية لانقلاب بنجلاديش » لمصطفى علوى (أكتوبر ١٩٧٥م / ١١٦ ـ ١١٨) .

لا يرون أبعد من آنافهم ، فالوحدة قوة ، والتفرق ضعف . ونحن الآن نستغرب أشد الاستغراب أن يطالب مثلا أهل الصحراء المغربية بالانفصال عن المغرب ، وتؤلمنا أعظم الألم مؤامرت الصليبية العالمية لفصل جنوب السودان عن شماله ، ونرقب بفزع ألاعيب الدول الغربية التى تهدف إلى تفتيت العراق ، فكيف يمكن أن نفرح بتفتت باكستان إلى دولتين ونعيب الجماعة الإسلامية التى كانت تعمل على بقائها دولة واحدة ذات بنيان مرصوص ؟

كذلك فإن تسليمة نسرين تحاول أن تخدع القارئ بادعائها أن طائفة الهندوس فى بنجلاديش هى طائفة فقيرة مستضعفة يأكل المسلمون حقوقها ويعتدون عليها دون وازع من ضمير فلا تستطيع أن ترد عن نفسها العدوان. ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد أن غالبية الإقطاعيين فى بنجلاديش كانوا من الهندوس ، هؤلاء الذين تتباكى عليهم الكاتبة اليسارية ، مع أنها لو كانت مخلصة لمبادئها السياسية لوجهت إليهم سهام انتقاداتها وكراهيتها . لكن بغضها للإسلام والمسلمين قد غطّى على عينيها وعقلها وضميرها ومشاعرها وجعلها ترى الأمور مقلوبة رأسا على عقب .

وأخيرا ، فلماذا تكره تسليمة نسرين أن توصف دولة بنجلاديش بـ « الإسلامية » وأن يوضع اسم الله فى أول الدستور البنجلاديشى ؟ هل تقدُّم المسلمين مرهون بحذف البسملة من دساتيرهم وإزالة كلمة

« الإسلامية » من أسماء دُوَلهم ؟ أرأيتم إلى هذا السخف ؟ أهذه هى الكاتبة التى تصوِّر على أنها شهيدة من شهداء حرية الفكر ؟ وهل يصح أن يقال إنها تنطلق فى مواقفها من مبادئ الإسلام وإنها تفهمه أفضل ممن يخالفونها فى الـرأى ؟